مقدمة

كانت مراعاة الدولةِ العثمانيةِ للإنسانيةِ مراعاةً عظيمةً وغيرَ مسبوقة، فقد اتّسمت الدولة العثمانيةُ بالتسامحِ مع مختلف الأديان والمعتقدات، إلى جانبِ سعيها الحثيثِ نحو ضمان الحقوق وحريات الشعوب، وقد استمرت على تلك الحال قرابة ستّةِ قرون، استطاعت خلالها تكوينَ قوّةٍ عظمى تهيمن على العالم، وكانت هذه السمات بمثابة الركائز الأساسية التي جعلت الدولة العثمانية تعتلي مكانة مرموقةً على رأس دول العالم، بحيث يمكننا أن نقول: إن هذه المكانة ستظل آثارُها باقيةً إلى أن يشاء الله.

* * *

فعلى سبيل المثال، إذا نظرنا إلى المهندس المعماريّ الكبير "سنان" الذي عاش في العصر الذهبيّ للدولة العثمانية، نجده يعمل بكلّ جهد وعزم، ويتجوّل في الأماكن والبلدان الأخرى فيُلاحِظ ويُسجّل مُشاهَدَاتِهِ، كالبَرْجَل الذي نرى إحدى ساقيه ثابتةً ومستقرةً في مكانها وساقه الأخرى تتحرّك هنا وهناك، لقد استطاع هذا المهندس المعماريّ أن ينحت اسمَه في تاريخ الهندسة المعماريّةِ العالميّةِ بحروفٍ من ذهب، وأن يحقّقَ نجاحًا باهرًا يظهرُ جليًّا في نحو أربعمائة تُحْفَةٍ معمارية؛ منها مائة وستة وثلاثون مسجدًا في ربوع الإمبراطورية العثمانية، وسبعة وخمسون مدرسةً، والعشرات من الأضرِحة، ودور تحفيظ القرآن، والمَشافي،

وقنوات المياه، ومياه السبيل، والحمامات، والجسور، والأقبية، والنُّزُل[١]، والقصور، ودور إطعام المساكين.

وتحكي لنا "ديل (*Diehl*)" الخبيرة في تاريخ بيزنطة، وهي مُنْبَهِرة بتُحفة "السُّلَيْمَانِية" التي بناها "سنان"، فتقول:

> "إنها أَكْثَرُ رَوْعةً وجلالًا من كاتدرائية جستنيان (*Jüstinyen*) (أياصوفيا)".

وفيما يتعلق بمسجد "السَّلِيمِية" الذي نجح المعماري الفذ "سنان" في تغطية مساحة كبيرة منه بقُبَّة واحدة، وأخرجه تحفةً معماريّةً فائقةَ الدقّةِ والجمال فيقول:

> "لقد كان أساطينُ المِعمار في الغرب يزعمون أنهم قد انتصروا على المسلمين؛ لعدم تمكُّنهم من بناء قبّةٍ واحدةٍ في الدولة الإسلامية تُضَاهِي قُبَّة (أياصوفيا)، وكانت حجّتهم في ذلك أنه من الصعب على المسلمين إنشاء قبّةٍ كبيرةٍ بهذا الحجم كتلك الموجودة في "أيا صوفيا"، فلقد أَدْمَتْ هذه الكلماتُ قلبي، وبعثت في داخلي روح المنافسة".

فما كان من ذلك المعماريّ الفذّ إلا أن اجتهدَ بكلّ ما أُوتِيَ من قوةٍ ومهارة، حتى استطاع أن يُخَلِّفَ لنا في تاريخ العمارة تحفةَ "السَّلِيمِيّةِ" الرائعة، التي فاقت في روعتها وجمالِها ودقّةِ بنائِها (أياصوفيا).

* * *

وعلى مستوى آخر، فإننا إذا عقدنا مقارنةً بين الوضع الذي كانت عليه مدرسة الفاتح، والوضعِ الذي كانت عليه جامعةُ "فرانكفورت (*Frankfurt*)" أو "السوربون (*Sorbonne*)" في بدايات القرن السادس عشر، فسنلحظ تلك النتائج المُبهِرة:

(١) النُّزُلُ: بمعنى المنزل، وهي تطلق قديمًا على أماكن الإقامة العامة، مثل الفنادق حديثًا. (المترجم)

وهي أنه في الوقت الذي كانت جامعة "السوربون" تشتمل على أَحَدَ عَشَرَ كتابًا في الطبِّ، وجامعة "فرانكفورت" اثني عشر كتابًا، كانت مدرسة الفاتح تشتمل على تسعمائة وستة عشرين كتابًا في الطبّ.

بل إن سبعةً من الكتب الموجودة في جامعة "السوربون" و"فرانكفورت" كانت عبارة عن ترجمات للعالِمَيْنِ "البيروني" و"ابن سينا"، فهذه المميزات التي امتازت بها مدرسةُ الفاتح عن غيرها من الجامعات، نجدها تزدادُ ازدهارًا بحلول منتصف القرن السادس عشر.

لقد كان عصرُ السلطان القانوني يُمثِّل حِقْبةً فريدةً قامت على أيدي فنانين مبدعين، حيث ظهرت في تلك الفترة أعمالٌ فنيّةٌ بلغت الغايةَ والذروةَ في الروعة والإبداع؛ كتلك التي نراها في مجالات العمارة العثمانية والفنّ والخطِّ والشعر والأدب والتذهيب[٢] والزخرفةِ والتطريزِ والمشغولات الخشبيّة.

كما بَرَزَ في تلك المرحلة شعراءُ عظامٌ كُثُر، يكاد يكون على رأسهم السلطان سليمانُ نفسُه بمَخْلَصه الشعريّ "مُحِبّي" الذي فتح الباب أمام ظُهورِ روائِعَ أخرى تأثَّرت بها بعد ذلك، هذا إلى جانب إبداعات شعراء آخرين؛ مثل: "فضولي" و"باقي" وغيرهما، كما لَمَعَ في ذلك العصر أيضًا الفنان "قَرَاحِصَارِي (*Karahisari*)" الذي بَرَعَ في فنّ الخطّ وأمتع الأمّةَ بكتاباته الفنّيّةِ الجميلة، أما في علم القانون فقد ظهر رجالٌ أفذاذٌ مثل: "زَمْبِيلّي علي أَفَنْدِي (*Zembilli Ali Efendi*)"، و"ابن كمال أفندي"، و"أبو السعود أفندي"، وفي التاريخ نجد علماء أَكْفاءً؛ كأمثال: "سَالَانِيكِي (*Selânikî*)"، و"عالي"، و" رَمَضَان زَادَه (*Ramazanzâde*)"، وفي الجغرافيا نجد: "بيري رئيس (*Pîrî Reis*)"، و"سيدي علي رئيس (*Seydi Ali Reis*)"،

(٢) التذهيب: هو فن التزيين بماء الذهب والألوان. (المترجم)

وأما فيما يتعلّقُ بأساطينِ البحر فإننا نجدُ عمالقةً في هذا المجال منهم: "باربا‌روس (*Barbaros*)"، و"بِيَالَه باشا (*Piyale Paşa*)"، و"تُورْغُوتْ رئيس (*Turgut Reis*)".

وفي الآونة الأخيرة، نرى ثُلَّةً من الكُتاب -من غير الأتراك- ممن يحمِلون الجنسية التركية اسمًا فقط، لكنهم ينتسبون في الحقيقة إلى هُويات أخرى، وقد تَجَاسَرَ هؤلاء الكُتاب وتجرّؤوا، فأخذوا يوجهون أكاذيبَ وافتراءاتٍ مثيرةً للاشمئزاز، في حق الدولة العلية العثمانيّة وحكّامها الأبطالِ أحيانًا، وأحيانًا أخرى في حقّ نساء القصر اللواتي كنّ يعشْنَ في الجناح الخاصّ بالحريم.

كان هؤلاء الكُتَّاب المُدَّعونَ الذين يعملون لصالح جهات وأجِنْداتٍ خارجيّةٍ مختلفة، يُرَدِّدون ادعاءاتٍ باطلةً لا أساسَ لها من الصحّة، منبَعُها كُتَّاب ومؤرّخون أجانب يُناصِبون الدولةَ العثمانيةَ العَدَاءَ؛ في مُحاوَلةٍ منهم إلى تقليصِ وتحجيمِ دور تلك الحضارة الفريدة التي أَثْرَتْ العالمَ لعدةِ قرون مُدَّعِينَ أنها حضارة الدم والسيف ويقول أحد الذين اتّخذوا لأنفسهم اسمًا تركيًّا -مع أنه غيرُ تركيٍّ أصلًا- وهو يتحدّث عن السلطانِ سليمان ووليّ عهدِه الأميرِ مصطفى:

> "ولقد أمرَ سليمان جنوده المقرّبين بخنق ابنه ووليّ عهده (مصطفى)...وجلسَ داخلَ خيمةٍ مجاورةٍ يستمعُ إلى أنينِ ابنه ووليّ عهده -الذي كان يقبّله ويشمّه عندما كان صغيرًا- وقد شرع الجلادونَ يخنقونَهُ بصمتٍ خبيث.. يالَلْعجب..! أترى هذا حسنًا!؟".

وهكذا نرى هذا الكاتب يمدُّ يدَ الافتراءِ على هذا الحاكم العادل الذي كان قلبُه عامرًا بالرحمة والمحبة، والذي كان يراقب نفسَه ويخشى ربَّه في معاملته لرعاياه حتى في أبسط الحقوق.

obeikandl.com

لكننا إذا أمعنّا النظر والتّدقيقَ في هذه الحادثةِ نجدُ أنَّ الأمير مصطفى قد انخدع بالفعل، وحاول القيام بثورةٍ على الدولة وعلى والده، أما السلطان سليمان القانوني فقد قام من جانبه بتقصِّي الحقائق والتأكُّد من صحّةِ هذه الادِّعاءات عن ابنه، واعتمد في هذا الصدد على مصادرَ مختلفةٍ وحاسمةٍ ودقيقةٍ تُمِدُّه بالمعلومات، حتى توصَّل في نهاية عمليّةِ البحثِ والتحرّي إلى أن ابنَه مصطفى كان يسعى بالفعل إلى التمرّد عليه؛ كي يستولي على الحكم.

كان السلطان القانوني يهتمّ بالشرعية ويولي الدولة أهمّيّة فوق كلّ شيء، فكان يحرِص أشدَّ الحرص على عدم إتاحة المجالِ أمام أيّ فرصةٍ قد تؤدِّي إلى إلحاق الأذى بالشعب، أو إلى نُشُوب حربٍ أهلية تُرَاقُ فيها الدماء، لقد كان حرصه على الدولة فوقَ أيّ ضعفٍ أو عاطفةٍ إنسانيَّةٍ، فلولا تصدّيه لاستمرار ابنه في الانحراف عن جادَّة الطريقِ، ولولا أنه منعَ ابنَهُ من اقترافِ الأعمال المؤدّيةِ إلى نشوبِ الصراعات بين الإخوة من أجل الوصول إلى الحكم؛ لولا ذلك كلّه لكانت النتيجةُ الحتميّةُ هي تفتُّت الدولة وانهيارُها.

لقد كان شغلُه الشاغل مُنصَبًّا في المقام الأوّل على حماية وَحْدَة الدولة ونظامِها وقوانينِها، واستحوذَ شعورُ الحفاظ على الدولة وكيانِها على كاملِ عقلِه ووجدانِه، بحيث صار مُقدَّمًا على ما سواه من مشاعرِ الشفقةِ والأبوّةِ.

إن الادِّعاءَ بأن سليمان القانوني كان يُتابِع عمليةَ إعدام ابنه من الغرفةِ المجاورةِ، لَهو مَحْضُ ادِّعاءٍ ملفّقٍ وافتراءٍ زائفٍ وعارٍ تمامًا مِن الصحة، ولا يعدو كونه تزييفًا للحقائق.

فقد رُوِيَ أن السلطان سليمانَ أراد أن يَؤُمّ المصلّين في صلاة الجنازة على جُثمانِ ولده، إلا أنه اضطرّ إلى الخروج من الصلاة وعدم إكمالها بسبب البكاء الشديد الذي سيطر عليه رغمًا عنه.

هل من السهل على أبٍ أن يضحّيَ بفلْذَةِ كبده، ويقتلَ ابنَهُ الأكبرَ الشجاع!

لقد تَردَّد كثيرًا بين "بقاء الدولة" و"عاطفة الأبّوة "، حاسِمًا أَمْرَه في النهاية باختيار طريق التضحية بعواطفِه من أجل بقاء وسلامةِ الدولةِ.

وإذا كان البعض يحاولُ استغلالَ الشعُور بالشفقةِ تجاهَ الأمير مصطفى، فلا يفوتنا أن نتذكّر أنه كانت هناك حروبٌ طاحنةٌ بين السلطانينِ "بايزيد (*Bayezid*)" و" جَم (*Cem*)"، وكلاهما من أبناء السلطان "الفاتح"، وقد قُتِل مِن جَرَّاء تلك الحروب مئاتُ الجنود، كذلك فقد كانت بين "بايزيد" ووليّ العهد "سليم"، -وهما من أبناء السلطان القانوني- صراعاتٌ سَقَط ضَحِيَّتها أبطالٌ وصناديد، وعلى الرغم من هذا، فلا نرى من يترحّم على هؤلاء الضحايا الذين سقطوا مِن جَرَّاء تلك الحروب، بل إن أحدًا لم يكترث لهم على الإطلاق.

إن الهاجسَ الوحيدَ لدى أتباعِ المدرسةِ الغربيّةِ الذين يسيرون على خُطَا سادة العالم الغربيّ، ممّن تحملُ ظهورُهم آثارَ ركلةِ العثمانيين، هو رغبتهم في تشويه سُمعة هذه الدولة العظيمة التي حكمت العالم لقرون، فصار شغلهم الشاغل هو الانتقام منها ومحاولة تشويه تراثها العريق.

* * *

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن جناح الحريم، فإن مما ينبغي لنا أن نعلمَه -أوّلًا وقبل أيّ شيء- أنه دارٌ تابعةٌ للسلطان، ومستودعٌ لأسراره.

وإن الهجوم بأبشعِ الأساليب على الحياة الأُسَرِيّةِ الخاصّة والمسائل الشخصيّة المتعلّقةِ بالعثمانيين، وتحريفَ الأحداثِ والوقائعِ التي عايشوها، وتصويرَها من خلال جوٍّ مثيرٍ وشهوانيٍّ، كلّ هذا ما هو إلا سمومٌ نفثتها بُؤَرٌ خارجيةٌ شرّيرةٌ، والحقيقة أن جناح الحريم كان يُعتبر لدى العثمانيين بمثابة المَهْد، الذي تنشأُ وتترعرعُ فيه الأخلاق والعلم والتربية.

والجواري اللواتي سَنَحَتْ لهنّ الفرصة للتواجد في جناح الحريم كانت كلّ واحدةٍ منهنّ يتمّ تدريبها على آداب وأخلاق المعاملة وَفْقًا لقدراتها، ويتمّ كذلك تعليمُها القراءةَ والكتابةَ وأحكامَ القرآن الكريم والعلوم الدينية، هذا إلى جانب فنون الأدبِ والموسيقى والتطريزِ، والمئاتُ من هؤلاء الجواري قد تزوَّجنَ بموظفين قد تخرجوا من "أَنْدَرُونْ (*Enderun*)"[٣] ونجحوا في إدارة الدولة.

* * *

أما السلطانة التَّقِيّة الخيّرة "خُرَّم" زوجةُ السلطان سليمان القانوني، فقد كانت واحدةً من النساء اللواتي امتلأت سيرة حياتهنّ بأباطيلَ صاغتْها ألسنةُ الدُّمَى المحليّة والأجنبيّة؛ حيث أَخَذَتْ هذه الألسنة تُلفِّق في حقّها قَصَصَ الشرِّ والتآمرِ المختلفةِ، وتَنسُبُ إليها كُلَّ فِعْل مُشِين.

لقد كانت الأعمالُ الخيرية للسلطانة خُرَّم مُنصَبَّةً بشكلٍ رئيسيّ على مساعدة النساء العثمانيات؛ حيث لم تكن هذه الأعمال الخيريّةُ مقتصرةً على رجال الدولة العثمانيّة، بل شملت النساءَ عمومًا، من داخل

(٣) (أندرون) هو الاسم الذي كان يطلق على الدرجة الأولى من رجال الإدارة الذين ينتمون إلى "الجناح الخاص" الذي يعتبر في الدولة العثمانية مؤسسة هامة للغاية ويحتل المكانة الأولى. وكان أحد الأختام الأربعة للسلطان موجودًا في (الجناح الخاص). وكان هؤلاء الرجال يتحركون مع السلطان أينما ذهب، ويقومون بتلبيس السلطان الملابس في المراسم والمناسبات. وكانوا يُعتَبرون في البروتوكول على درجة مساوية لدرجة الوزير.

قصرِ السلطان أو حتى من خارجِه، وشملت أكثرُ هذه النفقاتِ الفقراءَ والمساكين والمرضى والمُعدمين، وهذا دليلٌ على رحمة السلطانة خُرّم وعلى مدى حبّها للخير.

لقد كانت الثقافةُ الرئيسيّة لدى هؤلاء النساء هي خدمةُ جميع أفراد المجتمع، من خلال إنشاء المراكز العِلْمية من مساجدَ ومدارس دينية، بالإضافة إلى تَشْييدِ العمائر والمُستشفيات، والحمامات، والنُّزُلِ، والنوافيرِ، فإذا تتبّعنا هذه الناحيةَ من حياتهنّ نجد أنهُنَّ قدَّمْنَ خدمةً كبيرةً للمجتمعِ من خلال بناءِ منشَآتٍ عامّةٍ خيريّةٍ ضخمةٍ.

* * *

هذا، وقد تَحدَّثتُ في هذا الكتاب الذي يحمل عنوان "**السلطانتان: خُرّم ومِهْرِمَاهْ قَرينَة القانوني وسَلِيلَته**" عن شخصيّتهما النموذجيّتين، مُحاوِلًا الكشف عن حقيقةِ هاتين السيدتين اللتين تَعَمَّدَ الكُتّابُ المُعادون للدولة العثمانيّة تَصويرَهُنَّ على نحوٍ مغايرٍ للحقيقة؛ رغم أنهما عُرِفَتا بمَحَبَّتِهما لأعمال الخيرِ وبناءِ الأوقافِ الخيريّة، وفي النهاية فإنني أتركُ هذا الأمرَ إلى ضمير القُرَّاء؛ كي يتبيَّنوا حقيقةَ هذا الأمر بأنفسهم.

كما تناولتُ بالشرح الحديثَ عن "مجمّع خَاصَكِي" الذي تمّ بناؤُه من قِبَلِ المهندسِ المعماريّ "سِنَانْ"، وذلك بتكليفٍ من "السلطانة خُرَّم" في المنطقة ذاتِها التي صارتْ تحمِل اسمَها فيما بعد.

حيث كان النظامُ المُتَّبَع الذي أمرت به السلطانة خُرّم في هذه الدارِ أن يَتِمَّ توزيعُ الطعام بشكل مُتَساوٍ على كلٍّ من المُسلِمين والمسيحيّين.

* * *

أما "مِهْرِمَاهْ" الابنة الحبيبة للسلطان سليمان، فقد بيَّنتُ أنها كانت سببًا في تحقيق خيرٍ عظيم للبلاد والعباد، من خلال تكليفِها المهندسَ المعماريَّ البارع "سِنَان" بإنشاء مَجْمَعَيْنِ عِلْمِيَّيْنِ كبيرين؛ أحدهما قربَ ساحلِ "أسكودار"، والآخر في "أَدِرْنَه قَابِي (*Edirnekapı*)"، بالإضافة إلى تشييد المؤسّسات الاجتماعيّة والدينيّة؛ مَرْضاةً لله ﷻ ولرسوله ﷺ ورغبةً في نَيْلِ الشفاعة.

إن أعداءَ الدولةِ العثمانيّةِ من الكُتَّاب الذين تحرّكُهم أصابعُ الغدرِ الخارجيّة الحاقدة لا يزالون يتطاولون على الدولة العَلِيَّة العثمانية عن طريق الهجوم على السلطان سليمان القانوني من خلال اخْتِلاقِ الأكاذيب حول زوجَتِه "السلطانة خُرَّم"، كما نراهم يبذلون قُصارى جهدِهم من أجل تشويهِ النواحي الإيجابية التي أَوْرَثَتْها الدولة العثمانية للأجيال المتعاقبةِ من بعدها.

لكن أطماعَ هؤلاء الكتاب لن تتحقق؛ لأن فهمَ وإدراكَ الشعبِ قد بلغ درجةً من السُّموّ والرُّقيّ الأخلاقيّ تجعله لا ينخدعُ بمثل تلك الترّهات الفارغةِ والأباطيل المكذوبة.

إنني لَأشعُر بالفخر في المقام الأول بالصداقة التي كانت سببًا لما وجدتُه من مساعدات قيّمة أثناء إعداد هذا الكِتاب، وأتوجّه بالشكر والعرفان بالجميل إلى كل من السيد "محمد نِيَازِي (*Niyazi*)، والأستاذ المساعد الدكتور "علي كايا (*Kaya*)" وصديقي الشاب الدكتور "سليمان كراجليل (*Karacelil*)"؛ على ما أَسْدَوْهُ إليَّ من عون ومساعدة.

جَانْ أَلْبُجُوَنْج (*Can Alpgüvenç*)

إسطنبول/٢٨ آذار/مارس ٢٠١١م

"يا رياح الصّبا! احملِ لسلطاني عن حالي المؤلم التعيس، قولي له: إن وردتَك عندما يفتقدها وجهك يصبح حالها كالبلبل الذي يصرخ ويصيح!"

"السلطانة خُرَّم"

obeikandl.com